مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ٢، صيف ١٤٣٩هـ
صفحة ٣٥٥ – ٣٧٧

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

دراسة مضامين "الإيمان" في شعر إيليا أبي ماضي

سيدفضل الله ميرقادري[١]، محمد علي سلماني مروست[٢]، كريم كشاورزي[٣]*

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شيراز
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد
٣. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٨/٢/٢٨؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٨/٥)

الملخّص

يعتبر إيليا أبوماضي من أهمّ شعراء المهجر العربي في أمريكا الشمالية. إنّه خطا خطوات جديدة للخروج من التعصّب الديني المتشدّد والانحرافات الفكرية والدينية. يتطرّق إيليا أبوماضي إلى القضايا الدينية خاصةً قضية الإيمان لذلك يصف منظراً جميلاً يومئ إلى معتقداته وأفكاره الدينية تحت المضمار الفلسفي، التسامحي، الفطري والواعي. يبادر الشاعر بالتأمّل والتساؤلات لإزاحة الستار من أهم المواقف الإيمانية من الشك واللاأدرية والتناقضات المختلفة كالجبرية، الحرية، الإلحاد واليقين في إيمانه الفلسفي. يعكس الشاعر المبادئ التأملية الإيمانية عبر آرائه التسامحية والفطرية والفلسفية والواعية في إطار حبه الحقيقي إلى الله لا يشوبه شيءٌ من العمى والتحجّر والخمول. يسعى إيليا سعياً بارزاً لمناهضة الإلحاد ونبذ الطائفية وإثبات الله من خلال التفكير العميق في عمق الكون والحياة حتى يتحوّل الشك واللاأدرية عند الشاعر إلى اليقين والمعرفة. تعتمد هذه الدّراسة على المنهج الوصفي- التحليلي ومهمتها الكشف والتعبير عن شتّى ملامح الإيمان في شعر الشاعر وأيضا إزالة الستار عن معتقدات الشاعر وفكرته الدينية حول الكون والخلود.

الكلمات الرئيسة

أنواع الإيمان، إيليا أبوماضي، الشعر العربي المعاصر، الشعر المهجري.

* الكاتب المسؤول
Email: kkeshavarzi222@gmail.com

مقدمة

الإيمان في الإسلام أصل العقيدة وله معنى فكري مرتبط بوجود الإنسان على الأرض حيث يتعلّق لتقدّم البشرية نحو الأفضل وقد لعب الإيمان دوراً هاماً وخطيراً في الإتجاه العقائدي عند الأدباء ويتلازم بالمضامين الفلسفية، الدينية، الزهدية والواعية،كأنّنا نرى الشعراء يدعون النّاس إلى هويتهم الإنسانية والإلهية لتطوّر وتقدّم ذاته في جوانب أحوالها. يعتبر إيليا أبوماضي الشاعر الكبير الذي سعى سعياً بارزاً لإيقاظ المجتمع وإزاحة الجهل والخرافة، فإنّه تطوّر مع الزّمن والبيئة وهو يحمل روح الشرق في البلاد الغربية مع عقائده وحبه للوطن. يمثّل أبو ماضي همّ أمته العربية وما تقاسى من الآلام والهموم وهي تعاني في ظلّ الاستعمار الغربي الذي سرقوا كلّ شيءٍ من الإيمان والنفوس العربية وقد حاولوا طمس معالم هذه الأمة العريقة.

يسعى الشاعر سعياً بارزاً في تكريس مبادئ الإيمان عند الشعب العربي ويستفيد من التساؤلات التي قد طرحها كثير من الفلاسفة القدماء والمحدثين في مصدر الحياة، عالم الغيب والبعث والنشور. أسهم إيليا سهماً بارزاً في إخضاع الشعر العربي لأفكاره الفلسفية التي صاغها بواسطة العقل والأسئلة الكثيرة فهو يغور في قضايا ماوراء الطبيعة كالذات الإلهية ثم قضية الحشر والخلود والمبتدا والمنتهى بإيمانه الفلسفي للكشف عن حقيقتها والمعاني الكامنة فيها. فالجدير بالذكر أنّ البحث عن فلسفة أبي ماضي تؤدي إلى الأشكال المتناقضة من إيمان الشاعر في قضية الكون والحياة لذلك هو تارةً متفائلٌ وتارةً متشاؤمٌ وفي الجانب الآخر هو متصوفٌ وأحياناً تعتمد أفكاره إلى الفلسفة الابيقورية بحيث يدعو إلى التمتّع بملذّات الحياة ومظاهرها المادية. تتقلّب آراء الشاعر حول وجود الإنسان في الكون والحياة ملازماً بالتناقضلات والشكوك بحيث تتجّه إلى الجبرية والإلحاد في جانب، وفي جانب آخر تسير إلى الحرية واليقين فإنها ناتجةٌ عن نزعته" اللاأدرية "التي ظهرت بشكل الشكوكات الفلسفية ويؤمن بأنّ القيم الحقيقية للقضايا الدينية وماوراء الطبيعية غير محدّدة ولا يندرج تحت علم الإنسان. تشتمل هذه التساؤلات المتعلقة للوجود والكون عبر "الإيمان الفلسفي" وقد يقع كلّ الشيء عند الشاعر تحت مضمار العقل، التجربة والشك.

تغلغل الشاعر في أشعاره في كنه الأشياء للكشف عن حقائقها الكامنة فيها وقد تفتح هذه اللمحات والتأمّل في القضايا الوجودية الآفاق الجديدة لمعتقدات الشاعر حول قضية الكون

والحياة فهذا الأمر أدّى إلى أن اتّهمه البعض بالإلحاد والانحراف في ممارساته الدينية. فالجدير بالذكر أنّ الشاعر يستخدم هذه التأملات والتساؤلات للوصول إلى اليقين والحتمية وهو يحاول أن يكون شاكاً متشبّهاً ببعض الفلاسفه وخصوصاً المتصوّفه ونرى الوجه البارز لهذه الفكرة في سيرة الإمام "الغزالي" حيث يثبت قولنا، فيقول: «الشك يؤدّي الوصول إلى اليقين الثابت».

ينقسم إيمان الشاعر على حسب دراستنا في أشعاره على أربعة أقسام منهم: ١. الفلسفي ٢. التسامحي ٣. الفطري ٤. الواعي.. تحدّثنا عن الإيمان الفلسفي للشاعر سابقاً، فأمّا إيليا فيناهض بـ "الإيمان التسامحي "التمييز العرقي والديني بين الشعب ويستسلم أمام الله دون الرئاء والمداهنة وينشد قصائد تفوح نقاءً وصفاءً ومحبةً لأنبياء الإسلام والنصارى ويتذكر فيها بالإخاء والتضامّن بين المسلمين ويشيد بأمجاد الرسول الكريم (ص) والمسيح ويدعو العرب والمسلمين إلى لمّ الصفوف ونبذ الطائفية. إنّ الشاعر لايتنازل عن معتقداته الدينية ويناشد الله قلباً و وجداناً عبر "الإيمان الفطري" فهو يكشف الستار عن وجود الله مبيناً حبه الوجداني والخالص للمعبود الحقيقي في المراحل الأخيرة من حياته وقد يتواني عن المتعلقات الدنيوية والتوجّه الإلحادي إلى الله ويتّسم إيمانه بشيء من الخصوصية ليست مرتكزةً على أساس الترهيب والثواب بل سار مسار الأحرار الذين يعبدون الله من أجل حبّهم واشتياقهم إليه.

يقاوم إيليا أمام الخرافات السيئة والتحجّر والعمى عبر" الإيمان الواعي "و يدعو الشعب بالتدبّر والخروج من التعصب المتشدّد الذي يتعلّق بـ " الإيمان التقليدي "و المتعصب كأنّنا نرى الشاعر في القصائد المختلفة يهجم على الرهبان والمتزمّتين في الدين والمنعزلين عن المجتمع عبر إيمانه الواعي ويعتقد أنّ المعرفة الصحيحة في المعارف الدينية تؤدّي إلى تقدّم المجتمع البشري. تمثّل هذه الصبغات الإيمانية في شعر إيليا مدى سبر وتفحص الشاعر في كنه الحياة وهو لا يقبل أن يعرّف حقائق الكون والحياة وماوراء الطبيعة عشوائياً دون التيقّظ والإدراك لأجل هذا يقع متردّداً ومتقلّباً بين الشك واليقين دون أن يصل إلى الإلحاد بتاتاً.

أسئلة البحث:

هناك سؤالان يحاول البحث الإجابة عنهما: ١. ما هي الإتجاهات المختلفة الإيمانية في شعر إيليا أبي ماضي؟ ٢. ما هي المرتكزات الإيمانية الفلسفية عند الشاعر؟

خلفية البحث:

هناك كتب ومقالات ودراسات جامعية مختلفة حول إيليا بوصف الشاعر المهجري والتأملي وقد يبحث الباحث فيها عن آراء الشاعر حول المجتمع، الفلسفه والدين وأيضا مدى تأثّره من المذاهب والفلسفات الغربية والشرقية فلم تتنازل عنّا هذه الدراسات التي تتعلّق بقضية الدين ومعتقدات الشاعر ومنها نجد:

– المعوش، في كتاب (١٩٨١م) «إيليا أبوماضى بين الشرق والغرب في رحلة التشرّد» وقد يبحث عن الفلسفة التوماوية في تدين الشاعر ويكشف الستار عن ميزات الآراء التأملية للشاعر حول الوطنيات، المرأة والإجتماعيات.

– زهير، في كتاب (١٨٧٣م) «ديوان إيليا أبوماضي» في مقدمته يشير الباحث إلى المعتقدات الدينية للشاعر نبذةً ويستطرد بذكر الملامح المختلفة الشعرية حول قضية الكفر والإلحاد ويأتي بالشواهد الشعرية ترتبط بهذا المضمار.

– عزيزي، في دراسته الماجستير (جامعة كردستان، ١٣٨٩ش) المعنونة بـ «بررسى وتحليل نوآوريهاى إيليا أبوماضي» هو جمع الأشعار التأملية حول الدين والمجتمع للشاعر وهو يبحث عن النزعة الكلاسيكية والتجددية في دواوين الشاعر.

– خاقاني وآخرون، في مقالتهم المعنونة بـ«المديح النبوي وبواعثه في الشعر المهجري» (٢٠٠٨م) عالجوا المضامين الدينية في شعر شعراء المهجر الشمالي كإيليا وأيضاً نزعتهم التسامحية في استخدام الأنواع المختلفة من المواريث الدينية العربية والمسيحية للتآخي ولمّ الصفوف بين المسلمين. أمّا هذه الدراسة تعتبر جديدةً بحيث لانجد دراسات محكمة وجوهرية تستقصي الجوانب الإيمانية في شعر إيليا بالصورة الشاملة بل إنّها إشارات خاطفة سريعة حول معتقداته الدينية للشاعر فهذه البحوث تفتقر إلى الشمول والمنهجية المنسجمة في إيضاح مبادئ الإيمان عند الشاعر.

إيليا وعنصر الإيمان

ولد إيليا أبوماضي في بلدة المحيدثة بجبل لبنان وكانت مدرسة القرية أوّل بيت دخله ونال من علمه ما استطاع نيله؛ وفي سنة ١٩٠٢م حدّثته نفسه بالمهاجرة إلى أمريكا فترك قريته وتوجّه أولاً إلى الإسكندرية وأقام فيها سنة ١٩٠١–١٩١٢م (الفاخوري، ١٤٢٢: ٥٩٠). لم تكن الحياة في مصر كلّ ما يصبو إليه فهو هاجر إلى الولايات المتحدة وأقام في مدينة "سنسناتي

أوهايو" وعمل عند شقيقه مراد خمس سنوات ولم يجد في مدينة "سنسناتي" ما كان يطمح إليه من العلم والأدب فانتقل إلى "نيويورك" وقد شارك في تحرير «المجلة العربية» بعد ذلك انخرط ايليا عام ١٩٢٠ في "الرابطة القلمية" التي أسست في نيويورك وسعى أدباء هذه المجموعة منذ البداية إلى التجديد في الأدب العربي ونفّض ما عليه من الغبار في موضوعاته وأهدافه وغاياته (حاطوم، ١٩٩٤: ١٧).

أنتج الشاعر خلال عمره المديد في الولايات المتحدة أربعة دواوين منها:" تذكار الماضي"، "ديوان ايليا"، "الجداول"، "الخمائل" و"تبر وتراب". المتصفح لهذه القصائد تجد أنّها بالشكل العام تدور حول موضوعات الشعر العربي بعامة بالإضافة إلى الموضوعات الجديدة المختلفة وقد حاول الشاعر أن يكون شعره ذا المضمون الجديد كالوطن، السياسة، الإجتماع والدين (المعوش، ١٩٩٧: ١١٣). تمثّل هذه الدواوين المراحل المختلفة الشعرية من التقليد إلى التجديد في حياة الشاعر فيبادر ايليا بالتأثّر من المذاهب الغربية المختلفة من الإتّباعية، الرومانطيقية والرمزية فلا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين هذه المدارس في شعر أبي ماضي (المعوش، ١٩٩٧: ١١٦).

يعتبر الشاعر شديد الإحساس بما يؤرقُه من مشاكل قومه، وكان هذا الإهتمام جزءاً من التجربة الشعورية لدى الشاعر لإصلاح وحركة المجتمع العربي نحو التطوّر والوحدة فإنّه لم يدخل في الأجواء السياسية المضطربة وينظم الشعر لأجل الشعر ولا يمدح أحداً للصلة والهبات (الناعوري، ١٩٧٧: ٣١). ينشد إيليا الشعر للأغراض الإنسانية والوجدانية دون التصنّع والإفتعال ويدعو الناس إلى التفاؤل والتمتّع بالحياة وبالمظاهر المختلفة من الكون وعلى حد تعبير شوقي ضيف «لعلّه لم يعرف في القرن العشرين شاعر أكثر تفاؤلا ودعوة إلى اقبال على الحياة من إيليا أبي ماضي» (راجع: ضيف، ١٩٧٩: ١٨١). يرغّب إيليا الناس عبر التساؤل والتأمّل في الكون والحياة بالعقيدة الثابتة والإيمان الراسخ فهو يجسّد النزعات المختلفة من الإيمان في أشعاره عبر الفلسفة والوجدان الصافي دون أن يشوبه شيءٌ من الغموض والإبهام فربّما يقع في المظاهر المختلفة من الشك ولكن يعتبر شكه، الشك المنهجي والمؤقت ويكون للوصول إلى اليقين ومعرفة الله. يناهض الشاعر عبر هذه الصبغات الإيمانية بالجهل والتزمّت والتشدّد والخرافات ويدعو المسلمين إلى التوحّد والتضامن دون أن يتعصّب في القومية العربية فهو يتذكر الأمجاد المسيحية واليهودية لمناهضة التناحر الطائفي والنعرات القومية في البلاد العربية.

يمتاز إيمان إيليا بالأسئلة والتأمّل في مظاهر الكون فإنه يمثّل نفسه كالمصلح الديني وقد يحارب العمى والتعصّب المفرط ويدعو الشعب إلى المفاهيم الحقيقية الإيمانية من معرفة الكون والدين والإجتماع. يحاول أبوماضي أن يحلّل عناصر إيمانه بالاستدلال والاستقراء فإنّه يتأثر تاثيراً بالغاً من الفلاسفة الشرقية والغربية نحو: "خيام"، "أبي العلاء المعري" و"برغسون" في استخدام الشك والحدس للتحرّي والكشف عن المظاهر المختلفة من الإيمان الفلسفي وعقائده الدينية. يرتبط شعر إيليا أبي ماضي في القضايا العقائدية بالتجربة والفهم دون توثّب الخيال والأفكار العشوائية كما تبلورت بالقوة في كلّ قصائده الدينية خاصةً في مضمار إيمانه الفلسفي، الفطري، الواعي والتسامحي وقد يبادر بالإدراك والتقصّي عن مظاهر الكون والحياة وماوراء الطبيعة.

نزعات الإيمان في شعر إيليا

تشتقّ كلمة الإيمان من فعل آمن ومعناه التصديق فيقال على سبيل المثال آمن فلان بالفكرة أي صدّق بها واقتنع بها اقتناعاً نابعاً من قلبه. الإيمان مصدرٌ وهو مشتقٌ من الأمن بمعنى القرار والطمأنينة (راجع: أحمد بن فارس، ١٤٠٤: ١٣٣). أمّا في الإصطلاح فهو الاعتقاد القلبي الجازم بالله تعالى والتصديق بالرسائل السماوية والملائكة والكتب الإلهية ورسل الله والتصديق باليوم الآخر وفي الوجه الآخر هو القول باللسان والاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان (ابن منظور، ١٩٩٨: ٢٢٣).

قد تكرّرت في ديوان الشاعر بعض المفردات التي لها علاقه بالدين من دون أن تكون بارزةً متميزةً عن سواها مثل كلمة الحب، الوطن، الطبيعة، الكفر، الإلحاد. ومن أبرز الألفاظ التي تتعلّق بالخصائص الدينية هو الإيمان كأنّه يلعب دوراً هاماً في تبيين وإيضاح المعتقدات الدينية عند الشاعر. كلمة الإيمان قد تردّدت ثماني عشرة مرةً في مجمل شعر إيليا بينما تردّدت كلمة الشك أربعا وعشرين مرةً وكلمة موت مئة وأربع وستين مرةً (المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٩).

يصطبغ الإيمان بالصبغات المختلفة في دواوين الشاعر منها: الفلسفية، التسامحية، الفطرية والواعية. أمّا الإيمان الفلسفي فيعتمد على الشك، اللاأدرية والتساؤلات حول الكون والحياة. بادر إيليا عبر إيمانه الفلسفي بتجميع الموضوعات الفلسفية حول مصير الإنسان كالمبدأ والمنتهى والقضايا الكلامية كالجبرية والإختيار لكنّه لم يصل إلى اليقين الثابت وتتّصف قصائده في النهاية بـ"لست أدري". يشتدّ الإيمان الفلسفي في ديوان "أبي ماضي"

و"الجداول" حيث يشتمل القصائد التأملية حول مظاهر الكون والحياة ويتضمّن نظريات تستطيع أن تكشف في وجودها مذهباً فلسفياً جديداً يتناسب بالمدرسة التوماوية الجديدة بحيث تعتقد أنّ المعرفة هي حدسية أو استدلالية لا تكشف أسرارها. نرى القصائد التأملية في ديوان الشاعر تختم إلى "اللاأدرية " كانت ترتبط بـ"لا أعرف " وهذا ليس بمعنى الإلحاد والكفر كما تعتقد "سالم المعوش" أنّ الشاعر لم يكن ملحداً، وإنّما جرّب أن يكون شاكاً تمثّلاً ببعض الفلاسفة وخصوصاً المتصوفة (راجع: المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٢). قد نرى الوجه البارز من الإيمان الفلسفي عند ايليا في قصيدة "الطلاسم"، "الخلود" و"ثروة الألم".

كان المهاجرون العرب يلتقون في البلدان الأجنبية شيئاً من التساهل في الموازين الدينية بحيث تواجه بالغربيين الذين لا يكترثون أيّ اكتراث للتزمّت في طقوساتهم الدينية ولا يتصرفون بالأديان الأخرى بالتشدّد والإفراط لذلك كلّ هولاء الأدباء يرفعون التسامح الديني على التعصب الديني والقبليّ فهذا أدّى إلى إثارة العاطفة الجديدة في نفوس إيليا من الحرية والتسامّح الديني وتمخّض عن تنازل الشاعر عن تشدّد في معتقداته الدينية واهتمّ الشاعر اهتماماً كثيراً على توطيد الوحدة ونبذ النعرات القومية عبر إيمانه التسامحي ويدعو الشعب العربي إلى الوفاق وترك التعصّب المتطرّف كما نرى الوجه البارز من هذا الإيمان في قصيدة "الحرب العظمي".

أمّا الإيمان الفطري فيتمحور حول محور الوجدان والحب الصادق كأنّ الشاعر يستسلم أمام الله ويفرغ قلبه من كلّ الريب والإلحاد في معرفة الله فهو يتمسّك بالله واضحاً دون الشك والتساؤل من ثمّ يخضع الشاعر أمام الله ويمتاز إيمانه من أجل الإيمان فحسب دون شيءٍ آخرٍ من الخوف والثواب. يكافح أبوماضي بإيمانه الفطري الإتّجاه الإيماني الذي يقوم على الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ويجسّم نوعا من الإيمان مصطبغاً بالهيام الدائم والقلب المشتاق إلى الله ويوجد الوجه البارز من هذا الإيمان في قصيدة "الإنسان والدين" قد رأى الشاعر صورة المحبة والصفاء لله بواسطة عبادته ليست مرهونة بالمقابل ولا يكون بالطمع والمنّة (راجع: المعوش، ١٩٩٧: ٢٧٠) . يمتاز الإيمان الواعي عند الشاعر بمناهضة العمي، التحجّر والخرافات السيئة فيدعو الشاعر الشعب العربي إلى البصيرة والمعرفة الصحيحة بواسطة التغلغل في المظاهر المختلفة من الحياة ويوجد الوجه البارز من هذا الإيمان في قصيدة " الطلاسم "عندما يهجم الشاعر على الرهبان الذين انقضى حياتهم بالتنسّك والاعتزال ولا يفهمون أنّ ينابيع الإيمان الأصيلة تعتمد على العقل والدليل ودون كلّ منهم يقع الفرد في الجهل والتعصّب المتزمّت.

إيليا والإيمان الفلسفي

غاية الفلسفة هى المعرفة وغاية الدين هو الإيمان، الفلسفة تتطلب التفكير والتمحيص في الأمور ويحتاج طاقةً لا طاقةً للإنسان العادي فأصاب الإنسان على مرّ الزمان نوعاً من الحيرة وعدم الإنسجام الفكري وقد يصل الفرد في نهاية الأمر إلى الإلحاد والكفر (راجع: خليل، ٢٠٠٥: ٢١). لا يتّصف الإيمان الفلسفي عند إيليا بالرفض المطلق أمام تعاليم الدين بحيث يمتاز بالمنهج النقدي أمام مظاهر الكون فإنّه يفتّش في قضايا الدنيا والعقبى فيصل في نهاية المطاف إلى التناقضات المختلفة ولكن اضمحلّت هذه الفرضيات مع بلوغ المعرفة وتحوّلت إلى اليقين الثابت.

الفلسفة والإيمان الديني يهتمّان بالأسئلة الوجودية المتعلقة بالحياة والموت وما قبلهما وما بينهما ومابعدهما وقد يدلّان على هويتنا الإنسانية في كلّ أبعادها بما ترتبط إليها ومتّصفاً بالصفات الكلامية والتساؤلات المختلفة من حيث علاقاتها بالخالق وقد ينتهي في النهاية إلى اليقين أو الشك (راجع: النبهاني، ٢٠٠١: ٩).

يلعب الإيمان الفلسفي في قضية الكون والحياة دوراً هاماً في شعر شعراء العرب القدماء كـ"أبي العلاء المعري" وهو يعتبر شديد الإيمان بالله ولكن إيمانه لا يكون وجدانياً وعاطفياً فحسب بل كان عقلياً ويأتي بالأدلة على وجود الله (خضر، ١٩٩٩: ٢١٠). بادر المعري بالتفحص والسبر عن كنه الحياة ونظام الوجود ولكن حمّله الاستسلام لمنطق العقل المجرّد إلى التشكيك في الكتب السماوية وفي ما جاء عن الأخبار الأولين كقوله:

أفيقُوا أفيقُوا يا غواةُ
فإنّ دِيانَتَكم مكرٌ من القُدمَاء
فأرادوا بها جَمعَ الحُطام فأدركوا وباتَت سنةُ اللّوماء

(النبهاني، ٢٠٠١: ٢١١)

يمتاز شعر أبي العلاء مزاجاً فلسفياً وقد نرى وجهه البارز في كتاب "اللزوميات" حيث نجد فيها الوقفات الكثيرة بواسطة الأسئلة التي تعني بمشكل الجبر، الكون، الحياة والكتب السماوية ممّا فرضَ عليه العقل والفلسفة وسار معه فكرته إلى الشك في الجانب والإثبات في الجانب الآخر.

يبين الإيمان الفلسفي فكرة إيليا عن الكون والحياة والقضايا الفلسفية كالذات الإلهية، المبتدأ والمنتهى ثم يطرح الشاعر الأسئلة الكثيرة بالشكوكات والتناقضات المختلفة في شتّى

مواضع الوجود وهي تعتبر أساس الفكرة الرئيسية للشاعر في إيمانه الفلسفي، لكنّ إيمان الشاعر تقليديٌ ولا يبتكر الشاعر فيه أى ابتكارٍ... فذلك لأنّ الفلاسفة منذ القديم يستدلّون على وجود الله من خلال مخلوقاته المتحركة والجامدة (المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٨).

تعتقد "فدوى طوقان" أنّ أبا ماضي منتسبٌ بمدرسة "اللاأدريين" وهذا يراد منه مذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هذا العالم لا تستطيع الوصول إليها ومن هنا هذا المذهب هادماً للفلسفة، لأنّ الفلسفة ليست إلّا السعى لمعرفة حقائق هذا الكون (أمين، ١٩٤٩: ٣١٩). فواضح أنّ موضوع مسائل"اللاأدريون" يختلف عند الفلاسفة عن "لست أدري" التي وردت في قصيدة"الطلاسم"فأنّ اللاأدرية ليست مذهباً مستقلاً بحيث المعنى المجرّد في اللاأدرية هو"لا أعرف"كأنّ ايليا حاول في كشف عن كنه الحياة والكون وعجز عن الوصول إلى المعرفة الثابتة في حقائق الكون وهذا يخالف برأي النقاد الذين يتّهمونه بالإلحاد والكفر.

يحاول الشاعر البحث في سرّ الخلق ومصير البشر من دون أن يصل إلى الإجابة القاطعة مكتفاً بالتأمّل ويقع في فخّ "اللاأدرية" وهو فيلسوف يقع في المرتبة الوسطى بين منزلي الإيمان والإلحاد فإنه ليس مؤمنا بالمعنى الذي يعطى للإيمان عادةً و لكنّه ليس ملحداً أيضاً بل هو مجرّدٌ متسائلٌ وباحثٌ عن كنه الوجود بالعقل والتجريب من دون أن يوفّق الوصول إلى ساحل الحقيقة وفي أثناء ذلك يستفيد أبوماضي من التساؤلات ليصبح انعكاساً واضحاً لقلقه وتوتّره وشكه الدائم من المجهول الذي يسأل عنه ولا تقنع بأيّ إجابةٍ.

يعارض الإيمان الفلسفي بالرأي الكثير من العرفاء الشرقيين الذين يستدلّون بالإيمان القلبي والوجداني والعاطفي كـ"إبن عربي" هو يعتقد أنّ الإيمان نورٌ مكتشفٌ عن القلب فلا يمكن الاعتماد عليه والإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي يتحقّق في القلب، بواسطة النور الباطني (راجع: ابن عربي، دون تا: ٦٢٥). تطرّق إيليا إلى ما يشتغل فكرته من الكون والحياة وجعل العقل مرشداً وحكماً لقضايا الكون والحياة ولكن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقةَ ماوراء الكون ويقعُ في فخّ التشكيك والريبة لهذا يدخل الشاعر في التناقضات المختلفة ولا يستطيع حلّها ويصبِح متحيراً ومشوّشاً لأنّه لا يتضمّن إيمانه شيئاً من الوجدان والعاطفة ويريد أن يقع إيمانه في مضمار العقل والتساؤلات. يشتمل الإيمان الفلسفي الجوانب المتناقصة في شعر ايليا فهو تارةً يشك في الخلود والكون وتارةً أخرى يصل إلى المعرفة واليقين في الكون والخلود وأيضا يتردّد إيمانه الفلسفي بين الجبرية والحرية والتفاؤل

والتشاؤم. ينتَجُ الإيمان الفلسفي في شعر إيليا عن واقع الحياة ويدّل على إيمان الإنسان المفكر متحالفاً مع المعرفة واليقين. قد يتطرّق الشاعر إلى القضايا المختلفة عبر إيمانه الفلسفي وقد ينتهي في النهاية إلى التناقضات والإبهامات ومن أبرزهم:

إيليا والإيمان الفلسفي على أساس الشك

يتّصف الشك عند الشاعر بالعقلانية والمنطقية فهو يبادر بالحلول الصحيح للقضايا الفلسفية والكلامية كالكون والحياة بالتدبّر والتفحّص في كنه الحياة.يعتبر الشك فاتحة إيمان أبي ماضي بحيث يشك في كثير من المسائل التي بحث عنها ذهنه وقضى دهراً من حياته ليجد الإجابة عنها كما نشاهد في قصيدة "الطلاسم" يقول:

جئتُ لا أعلمُ من أينَ ولكنّي أتيتُ
ولَقد أبصرتُ قدّامي طريقاً فَمَشيتُ
وسَأبقى سائراً إن شَئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جِئتُ، كيفَ أبصَرتُ طَريقِي
لَستُ أدري

(المعوش، ١٩٩٧: ١٩٥)

يعلن إيليا في فاتحة هذه القصيدة جهله أمام الوجود بل مصدر الوجود كلّه، فإنّه لا يعرف إلّا حياته، وهي حياة لم يكن له فيها الرأي ولا الإرادة ولا الاختيار (فاتحى نژاد وآخرون، ٢٠٠٦: ٥٥). تأمّل الشاعر أمام الكون وألغازه ويكشف عن شعوره العميق أمام مظاهر الكون ومتعلقاته الطويلة كالبحر، الدير والمقابر ويتناول القضية الوجودية يعمل إثارتها في العقل وقد ينتهي تغلغله في مظاهر الكون إلى الشك. هذا الشك الذي يحيط بعقل أبي ماضي ليس من بدعه هو؛ بل هو موضوع قديم منذ وجد الإنسان على الأرض فعندما تأمّل الإنسان في الوجود خطر بباله سؤال فهو لماذا طرح الشاعر هذه التساؤلات؟ هل يشك في مصير الإنسان والإيمان بمصدر الحياة أم لا؟

فالجدير بالذكر أنّ الشاعر لا يبتكر شيئاً من الجديد من حيث التأمّل في الكون والحياة بل يعتبر إيمانه بشكل" الإيمان التقليدي؛ "لأنّ الفلاسفة منذ القديم بحثوا عن هذه القضايا الكلامية والفلسفية. تعتقد "سلمى الخضراء" أنّ فلسفة أبي ماضي في قصيدة الطلاسم فلسفةٌ سطحيةٌ على رغم ما يعكسه الشاعر من موقف العلماني اللاأدري ولا تجد فيها بحثا

عميقا عن الحقائق الكبرى في ماوراء الطبيعة ولا تعبّر القصيدة عن قلق فعلي تعانيه روح مضطربة حقا (الجيوسي، ٢٠٠١: ١٧٨).

أما الوجه الآخر من شكوك الشاعر في معتقداته الدينية إنه ينكر قضية الخلود كقوله:

لا خلود تحتَ السماءِ لحيّ   فلماذا يراودُ المستحيلا

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٧٥)

نظر أبوماضي حوله فإذا العالم ينحدر ببطء نحو الزوال، وما الخلود سوى ضرب من الخيال والتراب والحياة كلّها هباء فجميع العناصر الحية يساق إلى الفناء ولا يقف الشاعر عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى أنّ مجرد التفكير في الخلود معناه الوقوع في الخطأ فمعلوم أنّ الشاعر يعتقد بأنّ الخلود في الأرض مستحيل للبشر، أما الخلود الآخر في الدنيا الأخرى فهو أيضا من قبيل الخطأ كقوله:

غَلَطَ القائلُ إنّا خالدون   كلُّنا بعد الرّدى هيّ بن بيّ
زَعَمُوا الأرواحَ تبقى سَرمَدا   خَدعُوها نَحنُ والشَّمع سواءٌ

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٧٥)

يقوم منهج الشاعر في الشك على أساس "الشك المنهجي" و" النسبي " وهو نسبيٌّ لأنّه مؤقتٌ ووسيلةٌ لا غاية في ذاته إذ غايته الوصول إلى اليقين، أمّا الشك المنهجي فيعني أنّ إيليا يتّخذ الشك منهجاً في التفكير لا الطريقة الثابتة في الحياة وهو يقوم على عدم تسليم بصحّة حلّ معين للمشكل إلّا بعد تحقّق من كونه الصحيح فهذا يختلف عن "الشك المذهبي" و"النزعة القطعية" لأنّ الشك المذهبي دائمٌ وغاية في ذاته لا تتوافر للإنسان إمكان حلّ أى مشكل وقد عبّر القرآن عن هذا الشك المرفوض بالريب وأيضاً النزعة القطعية فتقوم على التسليم بصحّة حلّ معين دون تحقّق من كونه صادقاً أو كاذباً وقد وجّه القرآن الذمّ لهذه النزعة أيضا (راجع: خليل، ٢٠٠٥: ٧). يستخدم الشاعر الشك للوصول إلى اليقين ومتوجّهاً من خلال هذه الفكرة الشكاّكة إلى ثنائية الخير والشرّ في العالم ليقف على السلوك الإنساني الذي خلقه الله على أساس الاختيار لتستقيم الحياة ومن خلالها يبينُ أنّ الإنسان مختلف المشارب والاهتمامات وهذه الرموز دالةٌ على حقيقة الوجود التي ليست إلا طريقاً مضيئاً لمعرفة الله (المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٧).

اعتمد الشاعر على الاستدلال في عناصر الوجود ومتعلقاته ليوفّر ذهن القارئ إلى البحث والتدقيق في شمولية الكون والوجود وهو لم يرد الشك لمحض الشك بحيث أراد الشك

عبر إيمانه الفلسفي لطلب الحقيقة والمعاني الكامنة في الوجود.لم يكن الإيمان الفلسفي والشك في مظاهر الحياة الأخروية عند أبي ماضي بمعنى الرفض المطلق لحقائق الكون والحياة حتى تدخله في مسير الإلحاد والكفر بل يعتمد على أساس الشك المنهجي، العقلانية، المنطقية والنقدية. فإنّ هذا النوع من الشك يبحث عن العلاقات بين الإنسان والإله لوضوح الحقيقة وحتمية فكرة الخلود للوصول إلى معرفة الله.

إيليا والإيمان الفلسفي على أساس المعرفة واليقين

تعتمد وسائل المعرفة على الحواسّ، العقل والحدس وكلّ منها يؤثّر تأثيراً بالغاً في الوصول إلى المعرفة. يتّخذ الشاعر كلّ هذه الوسائل للوصول إلى المعرفة فهو يستخدم المذهب العقلاني، الحسي أو الواقعي والحدسي للكشف عن القضايا الفلسفية عبر إيمانه الفلسفي.ذكر بعض المحققين الفلسفة التوماوية في تدين الشاعر وإيمانه الناصع كنور الشمس وشفاف كروح العصر لايشوبه شائبةٌ ولا يخلّل فيها (المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٧). لقد حاول أبو ماضي أن يحلّل عناصر هذه الفلسفة التوماوية كالكون، الحياة ومصير الإنسان ليجعل منه أساسا لمنطلقه الديني فالإله موجود حقاً في نظره وهو مؤمنٌ به بكل ما خلقه نحو:

آمَنتُ بِاللهِ وآياتِه ... ألَيس أنَّ اللهَ باريها

(أبوماضي، ١٩٨٧: ١٥٦)

مرة أخرى نجد لوناً عميقاً من الإيمان بالله وقد يبين الشاعر معرفته في الكون كأنّه يرى الله في كلّ مظهر من مظاهر الطبيعة فكراً وحسّاً وشعوراً كقوله في ردّ على سؤال ولده عن الله:

أحسب الله الذي صاغَ من الذّرات صخرا

والذي شاءَ فصارت قطراتُ الماءِ بحرا

(أبوماضي، ١٩٨٧: ١٩١)

وأيضا يقول في موضع آخر:

عندما أوجَدَ هذا كانَ حسّاً وشعوراً ... ولاحَ في حسنةِ الأكملِ في ديوانِ الشاعر

(أبوماضي، ١٩٨٧: ١٩١)

في مكان آخر يتحدّث الشاعر عن إيمانه الراسخ ومعتقداته التي تعتمد على المعرفة واليقين الثابت أمام الكون كأن قد زال عنه الشك والتردّد وقد يشير الشاعر حول القضايا الدينية كالمعاد والخلود بواسطة المعرفة واليقين كقوله:

لا تَجزَعِـــي فَـــالموتُ لَـــيسَ يضـــيرُنا فَلَنَـــا إيـــابٌ بَعـــدَهُ ونُشـــورٌ

(شمس الدين، ٢٠٠٥: ٤٥٤)

وأيضا يصف الشاعر المنكرين بكتاب وسنن الله بوصف الكفار كقوله:

ألا تُؤمِنـــونَ بِقـــولِ الكتـــابِ فَوَيـــلٌ لَكـــم إنَّكـــم كـــافرونُ

(شمس الدين، ٢٠٠٥: ٤٥٠)

يمتاز هذا اليقين بالضعف والشدة عند الشاعر وذلك مرتبط بمقدار المعرفة التي يحملها الشاعر من ربّه وأيضا الوسائل التي اتّخذها الشاعر للوصول إلى المعرفة كالحواس، العقل والشك فإنّه لا يساير بالوجدان والذات الإنسانية لهذا يسفر عن الشك في بعض الأحيان ويقع الشاعر بين الطريقين الشك ومعرفة الله.

إيليا والإيمان الفلسفي على أساس الجبرية

لا تزال الجبرية تلعب دوراً هاماً في فكرة وعقائد الأدباء وأصحاب الفن، فهي القول بنفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى وأنّه لا مشيئة للإنسان مع مشيئة الله. فهم مكرهون على ما يفعلون فمن ثمّ الجبر يرغب الروح السلبية لدى الإنسان ويغرس فيه عدم المدافعة والمقاومة للأقدار باعتبار أنّ ذلك عبثٌ لا جدوى منه، لأنه ليس للإنسان قدر واستطاعة على الحقيقة (عبدالعزيز، ١٩٧٨: ٨٩).

يمتاز الإيمان الفلسفي لدى الشاعر على أساس الجبرية ونفي الاختيار وقد يرى الله في كل مظهر من مظاهر الطبيعة وتجسّم وجود الله عنده فكراً وحسّاً وشعوراً وأمّا من حيث مشيئته فواضح أنّه في القصائد المنظومة يؤمن ايماناً لايسير إلى الشك والدلالة بل أنّه مسيرٌ لا مخيرٌ كما يشير الشاعر في الأبيات التالية من قصيدة «تعالى» إلى عدم الإرادة وإختيار الإنسان كقوله:

أرادَ اللهُ أن نَعشـــقَ لمـــا أوجَـــدَ الحَســـناء
مَشـــيئَتُه ومـــا كـــانَ مَشـــيئتُه بِـــلا مَعـــنى
مـاذا أحبَبتُ مـا ذَنبُـك أو أحببـتِ مـا ذنـبي؟

(أبوماضي، ١٩٨٦: ٣٤)

يعتقد الشاعر أنه مسير يسير إلى الطريق المعلوم دون الاختيار ولكنّا نجد الشاعر ينكر إنكاراً بعيداً هذا المصير، فهو تارةً حائرٌ لايدري ما يعتقد في مسألة "المصير" وتارةً أنّه صائرٌ

إلى الفناء. أيضاً يشير الشاعر في موضع آخر بمسير الإنسان ينقضي بالجبر وهو يعيش كالعبد الذليل في الحياة كقولة:

إذا جَدّفتَ جُوزيت على التجديفِ بالنّار ... وإن أحببت عيرت من الجارةِ والجارِ
وإن قامَرتَ أو راهنتَ في النّادي أو الدّارِ ... فأنت الرّجلُ الآثمُ عندَ النّاسِ والباري
فهذا المنكرُ الأعظمُ في سرّ وإضمارِ إذن ... فاحى ومُت كالنّاسِ عبدا غيرَ مختارِ

(أبوماضي، ٢٠٠٦: ٢٣٨)

يشير إيليا في هذه الأبيات إلى آرائه الجبرية ونفي الإختيار في أحوال الإنسان كأنّه يعتقد بالجبر ويتّخذه إتخاذاً في موضع المحن والشدة وتناقض الحياة فهو يكترث بمشيئة الإنسان في إطار إيمانه الفلسفي فيعتقد أنّ الإنسان مسيرٌ ويحرّك إلى الطريق المعين ولا يستطيع أن يفرّ من هذا المسير. تتحوّل فكرة الشاعر مادامت مقصورةً على الدراسات الفكرية والعقلية المجرّدة؛ لأنّ العقل لا يصل في بعض الأحيان إلى الهدف المنشود فيقع الإنسان في الشك والترددّ، فنرى أنّ الشاعر يعتقد بحرية الفرد في الموضع الآخر فيتحدّث عن أعماله الإرادية في أشعاره.

إيليا والإيمان الفلسفي على أساس الحرية الوجودية

إنّ الحرية تعتبر من أهمّ ما نادت بها الفلسفة الوجودية وفيها أهميةٌ بارزةٌ لدى الإيمان الفلسفي للشاعر، من المؤكد أنّ الفلسفة الوجودية أكثر الفلسفات المعاصرة متحدّثاً عن الحرية والأعمال الإرادية للإنسان في الحياة (فرحات، ١٩٦٧: ١٠). تعترف الحرية بماهية الإنسان وقد تتوقّف على وجود الحرية والاستقلال فإذا لايمتلك الإنسان حريته فهو يفتقد تحقيق ذاته؛ لأنّ وجوده يعني وجود أفعال يأتيها عن الاختيار مبنى على الحرية (بايزيدى والآخرون، ٢٠١٥: ١٦). تجعل الوجودية الإنسان حرّاً ومسؤولاً تجاه أعماله وهذه المسؤولية تنبعث عن كونه حرّاً فلا معنى للمسؤولية تحت الجبرية والقدرية بل بمعنى أنّ الإنسان يختار بذاته . الحرية تعنى استقلال الاختيار وقيام بذاته وإنه لا يتنافى مع وجود الله ذي القدرة المطلقة لكنّ هذه الصفة الملتصقة بالحرية مثيرة الجدل فكيف يمكن للإنسان أن يتمتّع بالحرية المطلقة مع أنه لم ينتخب مولده، بيئته، شكله وجنسه (بايزيدى والآخرون، ٢٠١٥: ١٦).

يتّسم شعر إيليا بشيء من الحرية أمام أعماله في الحياة وفي الجانب الآخر يقابل بالجبرية والقدرية قائلاً بالأمر الفطري قد وضع الله في وجود الإنسان وهو يتعجب ممّن يأبى لنفسه الحرية كقوله في قصيدة «الحرية»:

فَتَنَتْـــه مَحاسِــنُ الحُريــة   لاسُــليمى ولا جمــالُ سميــة
هــي أُمنيــةُ الجميــعِ ولكنّــه   أرهقَتــه الطبيعــةُ البشــرية
عجيــبٌ أن يخلــقَ المــرءُ حــرّاً   ثم يــأبى لنفســه الحريــة

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٦٧٨)

تقع الحرية في النقطة المخالفة للجبرية كأنّ الشاعر تتردّد أفكاره في قضية الوجود بين الجبرية والحرية ويرجع هذا الأمر إلى إيمانه الفلسفي وقد يتضمّن الشك وعدم حتمية القول كأنّنا نرى إيليا متسائلاً عن حريته مرةً أخرى في قصيدة «الطلاسم» كقوله:

هـل أنـا حـرٌّ طليـقٌ أم أسـيرٌ في قيـودِ   هـل أنـا قائدُ نفسـي في حَيـاتِي أم مَقـودُ

(المعوش، ١٩٩٧: ٣٩٩)

يتساءل الشاعر عن وجوده ومنشاءه ومصيره في بداية القصيدة وينتابه في جميع المراحل شيء من الشك وعدم اليقين ويجيب عليها الإجابة الغامضة وقد تتّضح نزعته إلى الحرية على أساس «اللاأدرية»؛ لأنه يجهل الماضى والحاضر والآتي ومولده ونشأته، مع هذه الأوصاف أن الشاعر لاينكر هذه الحرية ولكن يعتقد بإمكان الإنسان أن يحدّدَ بإرادته موقفه عن تلك الظروف لذلك نرى وجهه الآخر يشير إيليا إلى إيمانه بصراحة علي الحرية على رغم شكه في منشاءه ومولده كقوله:

حــرٌّ ومــذهب كُــلِّ حــرٍّ مَــذهبي   مــا كنــتُ بالغــاوي ولا المتعصــبِ
أنــا مــن ضــميري ســاكنٌ في مَعقــلِ   أنــا مــن خــلالي ســائرٌ في موكــبِ

(أبوماضي، ١٩٨٦: ٩٩)

يتناول الشاعر بالحرية واختيار في إطار علاقات بين الكون والإنسان فيكشف الستار عن إيمانه الفلسفي الذي كان يتضمّن بالتردّد والتناقض كأنّه يسير في مسرى الجبريين في بعض الأحيان وفي الموضع الآخر يدافع عن الحرية واختيار الإنسان في الحياة.

إيليا والإيمان التسامحي

التسامح هنا لا يعتني التنازل عن معتقداته وإنّما يعنى القبول بالآخر والتعامل معه على أسس العدالة والمساواة بغضّ النظر عن الأفكار المختلفة. نجد التسامح في سلوك النبي بين البشر يصل إلى ذروته فعندما استطاع النبى أن يدخل مكة منتصراً عفا عن المشركين وقال «إذهبوا فأنتم الطلقاء» (الإسكندري، ١٩٥١: ١٧٦).

يستخدم إيليا الإيمان التسامحي في أشعاره بحيث لا يتنازل عن معتقداته الدينية في أكثر الأوقات ويخطو الخطوات الكثيرة للتوحّد بين المسلمين واندماج الأديان للخروج من الطائفية والقبلية ويعتقد الشاعر أنّ الخلافات الدينية شرٌ عظيمٌ يجب القضاء عليه فدعا المجتمع حول رايةٍ واحدةٍ هي راية الوطن لبناء المجتمع الأفضل ويتحدث عن عدم تعصّبه ويدعو الشعب العربي إلى لمّ الصفوف والتضامّن بين الأديان كالإسلام والنصارى ويدحض التناحر الطائفي والنعرات القومية بين الشعوب العربية وقد ينادي بالوفاق وتطهير القلوب كما يتذكر في قصيدة "الحرب العظمي".

تُبـــاعُ أحمـــدُ والمســـيحُ هـــوادة ... مـــا العهـــدُ أن يتنكـــرَ الأخـــوانُ
اللّه ربُّ الشـــــــرعتين وربُّكـــــــم ... فـــإلى مـــتى في الـــدينِ يختصـــمانِ
فَخُـــذُوا بأســـبابِ الوفـــاقِ وطَهِّـــروا ... أكبـــادَكم مـــن لُوثـــةِ الأضـــغانِ

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٧٣٧)

لقد يسعى إيليا سعياً كثيراً للخروج من الطائفية وإزالة النعرات القبلية كما طلب في حفلة تكريم الأستاذ "جنبلاط"أن ينهال هدماً على الطائفية السيئة لأنّها كانت سبباً في ضياع الوطن وكثير من أبنائه نحو قوله:

الطائفيـــــةُ أُنـــــت الأول معـــــوّلٌ ... في ســـورِها، ثـــابِر علـــى تهـــديمها
حـــــتى تعـــــودَ وواحـــــد أقنومهـــــا ... ويحـــــلَّ روحُ اللّه في أقنومهـــــا

(المعوش، ١٩٩٧: ٢٣٧)

ينظر إيليا إلى الطبيعة متمثّلاً منها للدلالة على إيمانه التسامحي حيث يصوّر أن الغيث مثلا يروي الجميع ويسقي الجميع صالحين أم طالحين فلا يفرّق بين أحد بل أنه يبذلُ ودّه وسخائه ولا يتمايز في العطاء كقوله في قصيدته «كتابتي» حيث يجيب عن سائلته عن مذهبه في الدين وفي الحياة:

وديـــني كـــدينِ الشُـــهبِ تَبـــدُو لعاشـــقٍ ... وقـــال، وفيهـــا مـــا يحـــبُّ ومـــا يقلـــى
فمـــا اســـتترت كيمـــا يضـــلّ مســـافرٌ ... ولا بَزغَـــت كـــى يســـتَنيرَ الـــذي ضـــلّا
وديـــني كـــدينِ الغيـــثِ إن ســـحَّ لم يبُـــل ... أُروّي الأقـاحي أم سَقى الشّوك والدُفلى

(المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٦)

يبين الشاعر فكرته التسامحية في هذه الأشعار بالتصاوير والعناصر التي استخلصت من الطبيعة كالغيث والشهب فإنّهما يعطيان دون المنة والإقصار فلايفرّقان بين شتّى عناصر

الحياة. يبرّر أبوماضي الشعب العربي من طائفية دينية فيدعوهم إلى الإجماع الفكري عبر إيمانه التسامحي فهو يتذكر في أشعاره المعنى الجديد للتسامحية الدينية التي تشتمل الاحترام والإنسانية والمحبة بين الأديان وينكر في جانب هذه التسامحية الرؤية القومية المتطرفة فإنّها يمنع من تجمّع شمل المسلمين والمذاهب المختلفة فيؤدّي إلى التناحر الطائفي والتفرقة والاختلاف بينهم.

إيليا والإيمان الفطري

الإيمان الفطري هو الإيمان الناتج عن الغريزة والمقصود هنا بالغريزة، غريزة التديّن وهي تعني إحساس الإنسان بالنقص والعجز والاحتياج إلى وجود الله ويأتي الإيمان الفطري عن طريق الوجدان وهو يملأ العقل قناعةً والقلب طمأنينةً ليس هذا الإيمان بما يسمُّونه إيمان العجائز بل الإيمان المستنير والثابت على أساس الحبّ والورع دون شيءٍ من الخوف والرادع فإذا ترك وحده هذا الطريق غير مأمون العاقبة وغير موصل إلى التركيز ولم يترك إسلام الوجدان في طريق الإيمان في الإنسان بحيث يفسح المجال لاستجابة الدواعي الفطرية من التدين والعجز فيه (راجع: النبهاني، ٢٠٠١: ٨).

يتوجّه إيليا في المراحل الأخيرة من عمره إلى صوت الوجدان والإيمان المستنير والمستقيم ويستسلم أمام الله لإزالة النقص والعجز في تدينه بحيث يرجع إلى وجدانه وفطرته لكشف السرّ عن الحقائق الإلهية، أمّا هذه الفكرة الإيمانية فتقابل بالكفر والإلحاد حتى نستطيع القول باضمحلال هذه الرؤية اللادينية في المراحل الأخيرة من حياته وقد بدا أبوماضي إنساناً مؤمناً يركن إلى الله ويقبل بكل توجيهاته (المعوش، ١٩٩٧: ٢٦٩). كما نرى في ختام قصيدته «كن بلسماً» يقول:

عبدوا الإلهَ لمغنمٍ يرجونه ... وعبدتَ ربَّك لستَ تطلبُ مغنما
كم روّعوا بجهنمَ أرواحَنا ... فتألّمَت من قبلِ أن تتألّما
زَعَمُوا الإلهَ أعدَّها لِعذابِنا ... حاشا، وربُّك رحمةً، أن يظلمَا

(أبوماضي، ١٩٨٧: ٩١)

اكتنفت النظرة الإيمانية الفطرية عند إيليا بشيءٍ من الخصوصية وقد تفترق بالنزعات الأخرى فهو يؤمن على طريقته الفطرية وعبادته ليست مرتكزةً بالمقابل، بل إيمانه من أجل الإيمان فحسب دون أن يولي اهتمامه إلى الثواب الأخروي، وقد رأى في الإله صورة للمحبة

والصفاء والنقاء من غير الترهيب والترغيب ومن غير المطمح ولا المنّة (المعوش، ١٩٩٧: ٢٧٠). فيتحدّث الشاعر عن الله والدين في ختام قصيدة «الإنسان والدين» كقوله:

هـو الضـياءُ الـذي يمحُـو الظـلامَ فمـن ... لا يهتـــدي بســـناه ظـــلّ حيرانـــا
والمنـــهلُ الرائـــقُ العـــذبُ الـــورود فَمَـــن ... لا يســـتَقي منـــه دامَ الـــدهرُ عطشـــانا
لـيس الكفيـفُ الـذي أمسـى بـلا بصـر ... إنّـــي أرى مـــن ذوي الأبصـــارِ عميانـــا

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٦٠١)

رأى الشاعر في الإله الصورة النزيهة والقديسة دون الترغيب والترهيب من الله ومن غير المنّة وقائلاً من يهتدي بغير الله لا يركن في حياته إلى الاستقرار والسلوان وإنّه كالنور يزيلُ الظلمة والعتمة ويعتبر الدين المورد العذب الورود فمن لم يشرب منه بقي ظمآن أبداً. يصف إيليا الدين بالحصن الذي يصون المرء عن الزلل فالرِّضا بقضاء الله والتسليم لأمره من أعلى مظاهر الإيمان الفطري وهما من أبرز الخصال التي يتصف بها الأنبياء ومن يتمسك بها يرتقي إلى قمة الهرم الإيماني.

إيليا والإيمان الواعي

يستند الإيمان الواعي إلى الفهم والإدراك ويبتعد عن العمى والتقليد وهذا هو الإيمان الذى ميز الشخص عن العبودية والتبعية الساذجة التي تجعل العمل هباءاً منثوراً فلا يحصل صاحبه نتيجةً وفائدةً وهذا الإيمان يصطبغ بالأدلة والبراهين وقد يردّ على الإيمان التقليدي والمتعصب لأنّه ليس له أساس يرتكز عليه سوى التقليد والتحجّر والرياء وقد ذمّ القرآن العمي، المقلّد والمتعصّب يفضي صاحبه إلى السقوط (الخامنئي، ٢٠١٥: ٥٠).

يشير الشاعر بالإيمان الواعي الذي يتلازم بالآراء النقدية بحيث يبادر الشاعر بالقبول المطلق والرفض المطلق للقضايا التي تخالف إيمانه وتناقض بالعلم والمعرفة الصحيحة. يعتمد الإيمان الواعي بالرشد، المعرفة والبصيرة في العقول والقلوب ويهتدي الشخص في سبيل الإجتماع والثقافة والدين ويردّ على العمى والتقليد العشوائي الذي يتمخّض عن سقوط وإزالة الإيمان الديني والأصيل. يخالف إيليا بالإيمان الذي لايستند على الدليل وإنّما ينبع من التعصب المتشدّد الذي يقع الفرد في ورطة الإفراط والتحجر الديني فنشاهد الشاعر في قصيدة "طلاسم"يشير إلى الجهل والعمى للرهبان ويدعوهم إلى البصيرة والمعرفة كقوله:

قيــلَ لي في الــديرِ قــومٌ أدركــوا سـّـرَ الحيــاةِ
غــيرَ أنّــي لم أجِــد غــيرَ عقــولٍ آســناتٍ
وقلــوبٌ بُليــت فيهــا المُــنى فهــي رفــاتٌ
مــا أنــا أعمــى فهــل غــيري أعمــى؟
لســـــــــــتُ أدري

(أبوماضي، ١٩٨٦: ٢٣٦)

يهجم الشاعر في هذه القصيدة التأملية على الرهبان الذين يعيشون في الصومعة ولا يفكرون فكراً تأملياً بل يشدّدون في آرائهم حتى خمدت عقولهم ولا ينظرون إلى المجتمع إلّا بمنظار التعصب المتشدّد. يناهض إيليا الجهل والعمى عبر إيمانه الواعي حتى ينسب العارف الجاهل بأشقى الناس كقوله:

جَهِلُــوا ولم تَجهَــل نفوسُــهم الأســى   أشــقى الأنــامِ العــارف المجهــول

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٤٥٩)

وأيضا يشير الشاعر في ختام القصيدة "لمن الديار" إلى مناهضة الرثاء وعدم البصيرة والتأمل ويناشد الشعب بالعلم والعمل التؤأمان لأجل تطوّر المجتمع والحضارة كقوله:

أيــن الهُــدى، يــا مَــن يبَشّــر بالهُــدى   أيــن التُقــى يــا أيهــا المزّمّــلُ
لا قــدرَ للجهــلاء حــتى يعلمُــوا   لا فَضــلَ للعُلَمــاء حتّــى يعملــوا

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٤٥٦)

يكلّل الشاعر إيمانه الواعي بالتأمل والبصيرة دون شيءٍ من التعصب المتطرّف الذي يجعل الإغلال في عنق الإنسان كأنّه يتذكر في سُؤال عن مذهبه في قصيدة "كتابي":

فَقُلــتُ لهــا لا يقــتَني المــرءُ مــذهبا   وإن جَــلّ، إلّــا كــانَ في عُنقــه غلّــا
وأيضا صَار نبيّ كلّ ما يطلق العقلاء   صــارَ كتــابي الكــونِ لا صُــحُف تُتلــى

(ميرزا، ٢٠٠٤: ٤٨٥)

يخالف الشاعر بإيمانه الواعي التعصّب والخرافات السيئة التي تسوق المجتمع إلى التخلّف وهو ينتقد المتزمّتين والمتنسكين الذين يعيشون في ظلّ الجهل والعمى ولا يفهمون أنّ الإيمان الحقيقي ينتج من الإدراك والصلة الحقيقة بالله. ينبّه أبوماضي عبر إيمانه الواعي الشعب العربي بحيث أن الطاعة ليست طاعةً عمياءً فهي مبينة على المنطق والوعي فهو يقف موقف المرشد والدليل للمجتمع العربي فيناهض في أشعاره بـ"الإيمان التقليدي" الذي لايتمتّع بالبصيرة والعين الباصرة فيصل الشخص إلى التحزّب والتعصّب المتطرّف.

النتائج

بعد دراسة شاملة حول العقائد والدواوين الشعرية لإيليا وصلت المقالة إلى هذه النتائج:

- حاول إيليا أن يبني كوناً جديداً من المبادئ الإلهية، الإنسانية والأخلاقية عبر التغلغل والتأمّل في الكون والحياة. قد ركز إيمانه والمرتكزات الأساسية من عقائده على أساس الإيمان الفلسفي، التسامحي، الفطري والواعي وقد يتّصف بالعقلانية والمنطقية والنقدية واصطبغت النزعات الإيمانية في شعره في أكثر الأحيان بالصبغة اللّاأدرية التي منحته عمقاً فلسفياً وكذلك هذا العمق في التأمل والشك نتيجة من نتائج التمازج بين الشرق والغرب.
- بحث الشاعر عن كنه الحقائق في قضية الكون، الحياة وأيضاً الفضائل والرذائل البشرية وقد اكتظّ شعره بالتناقضات المختلفة كإنكار الخلود وإثباته، الجبر والحرية، التفاؤل والتشاؤم وقد سارت آثاره امتداداً للشرق للتوحّد بين الأديان المختلفة كالإسلام، المسيحية واليهودية .
- النظرة الدينية والجوانب الإيمانية قد تغيرت عند الشاعر بحيث لم تكن ينابيع أبي ماضي الإيمانية غربيةً خالصةً ولا شرقيةً خالصةً كأنّه يتّسم بشيءٍ من التعادل والتسامح في قضية الإيمان وهو يدعو المسلمين والأديان الأخرى كالنصارى بالتوحّد والتآخي.
- وقعت الفكرة الإيمانية الفلسفية في المرتبة الأولى في قصائد الشاعر وتعتمد على العقل، الواقع والشك، فأمّا الفكرة الإيمانية التسامحية تقع في المرتبة الثانية وترتكز على الوحدة والتضامن بين الشعوب والأديان خاصةً ثم تقع الفكرة الإيمانية الواعية في المرتبة الثالثة وقد تعتمد على نقد الخرافات السيئة ورفع التحجّر المتزمّت وتقع الفكرة الإيمانية الفطرية في المرتبة الأخيرة معتمداً على نداء الوجدان والفطرة الإنسانية.
- على رغم سيطرة العقل في الوصول إلى الإيمان بالله فإنّ الشاعر أدرك عدم إمكان الوصول إلى معرفة الله والكون بالعقل والحس فقط لأنّ العقل والحس محدودان ويعجزان عن إدراك الله وماوراء الكون وقد جعل شعره للقضايا الإيمانية الخالصة الوجدانية في السنوات الأخيرة من حياته واصفاً حبه الحقيقي وصفاء قلبه إلى الله دون الخوف من العقاب والرغبة في الثواب فالله موجود حقاً في نظره وسجلت في

أشعاره الأخيرة الإيمان النزيه دون شيءٍ من الشك والإفتراقات المختلفة، كأنّ الشاعر وصل إلى هذه النتيجة أنّ إدراك هذه القضايا قد تتعدّى من قدرة واستطاعة الإنسان وتعتبر الحياة زمناً محدوداً ولابدّ للإنسان أن يتمتّع من مظاهرها وأن يغتنم الفرصة للوصول إلى الله ولا يكدّرها بالشك والتناقضات المختلفة.

المصادر والمراجع

١. الإسكندري، أحمد (١٩٥١م). *المنتخب من أدب العرب*. ج ٤. القاهرة: المطبعة الأميرية.

٢. ابن عربي، محيي الدين (دون تا). *الفتوحات المكية*. تحقيق يحيى عثمان. القاهرة: مكتبة المجلس الأعلى.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٨م). *لسان العرب*. ج ١، تنسيق وتعليق على بشيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٤. أبوماضي، إيليا (١٩٨٦م). *الجداول*. ط١٧، بيروت: دار العلم للملايين.

٥. ـــــــــــ (١٩٨٧م). *الخمائل*. ط١٧. بيروت: دار العلم للملايين.

٦. ـــــــــــ (٢٠٠٦م). *الديوان*. شرح صلاح الدين الهواري. بيروت: دار مكتبة الهلال.

٧. أحمد بن فارس (١٤٠٤هـ). *معجم المقاييس اللغة*. ج ١، تحقيق محمّد هارون.

٨. أمين، أحمد (١٩٤٩م). *قصة الفلسفة اليونانية*. *بيروت: دار العودة.*

٩. الجيوسي، سلمى الخضراء (٢٠٠١م). *الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث*. ترجمة لؤلؤة عبد الواحد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

١٠. حاطوم، نايف (١٩٩٤م). *إيليا أبوماضي الشاعر المهجر*. بيروت: دارالثقافة.

١١. الخامنئي، علي (٢٠١٥م). *الإيمان ومستلزماته*. طهران: مركز صهبا.

١٢. خضر، سبا (١٩٩٩م). *النظرية الحنفية عندأبى العلاء المعرى بين الفلسفة والدين*. الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة.

١٣. خليل، صبري محمد (٢٠٠٥م). *مقدمة في فلسفة وقضاياه*. الخرطوم: الجمعية الفلسفية لطلاب جامعة الخرطوم.

١٤. شمس الدين، إبراهيم (٢٠٠٥م). *ديوان إيليا أبوماضي*. بيروت: مؤسسة النور للمطبوعات.

١٥. ضيف، شوقي (١٩٧٩م). دراسات في الشعر العربي المعاصر. ط ١٠، القاهرة: دار المعارف.

١٦. عبد العزيز، مصطفى (١٩٧٨م). *الجبر والاختيار بين المتكلمين الصوفية*. القاهرة: كلية الآداب.

١٧. الفاخوري، حنا (١٤٢٢هـ). *الجامع في تاريخ الأدب العربي*. قم: منشورات ذوي القربى.

١٨. المعوش، سالم (١٩٩٧م). *إيليا أبوماضى بين الشرق والغرب في رحلة التشرد والفلسفة والشاعرية*. بيروت: دار المنال.

١٩. ميرزا، زهير (٢٠٠٤م). *الأعمال الشعرية الكاملة لإيليا أبوماضي*. بيروت: دار العودة.

٢٠. الناعوري، عيسى (١٩٧٧م). *ايليا أبوماضي رسول الشعر الحديث*. بيروت: منشورات عويدات.

٢١. النبهاني، تقي الدين (٢٠٠١م). *نظام الإسلام*. منشورات: حزب التحرير.

٢٢. محمدي بايزيدي، مجيد؛ آيينه وند، صادق؛ پروينى، خليل (٢٠١٥م). «الحرية الوجودية في الرواية العربية المعاصرة لسهيل إدريس». *إضاءات نقدية فصلية محكمة*، العدد ١٩، ص١٦.

٢٣. فاتحي نژاد، عنايت الله؛ بلوردي، محمدرضا (٢٠٠٦م). «إيليا أبوماضي شاعر التأمل والفلسفة». *مجلة اللغة العربية وآدابها*، المجلد ٢، العدد ٤، صص٥٥.

٢٤. فرحات، عبدالحميد (١٩٦٧م). «التفسير الوجودى للنضال». *مجلة الفكر المعاصر*، المجلد ٣، العدد ٣٣، صص١٠.